مُقَـــدِّمَة

الحمد لله بجميع محامده ما علمت منها وما لم أعلم، على جميع نعمه وآلائه، ما علمت منها وما لم أعلم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأميّ المبعوث رحمة إلى العالمين.

وبعد، فهذه طبعة جديدة لكتاب روائع القرآن، أقدمها إلى طلاب العربية وهواة الأدب العربي وكل من يعنى بدراسة القرآن.

ولقد تمنيت أن يتاح لي من الوقت ما يسمح لي بالتوسع في بحوثه والتعمّق في دراساته، بالقدر الذي يتفق مع روعة القرآن وعمق مراميه ودقة بيانه. ولكني على يقين بأن الزمن كله أضيق من أن يتّسع لشرح يتكافأ مع عظمته، والطاقات كلها أقل من أن تنهض باستيعاب دقائقه، والحياة كلها جزء يسير من مدّه الزاخر وإشراقه السامي ومعانيه التي لا تنقضي!...

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ (الكهف: ١٠٩).

ولقد شرّفني الله بتدريس القرآن وبلاغته بقسم اللغة العربية في جامعة دمشق ثم في جامعة اللاذقية، فما رأيت ذا رشد في فكره، وذوق في نفسه، يتاح له أن يعلم علماً عن هذا الكتاب وأن ينصت إلى شيء من

بيانه، إلا وتهتز منه الجوانح طرباً لرائع قوله وسمو إشراقه، ثم يقف مستسلماً مشدوهاً تحت مظلة إعجازه!.. لا يحول دون استعلانه بذلك فكر عُرف به أو هوى يميل إليه أو عصبية تسيطر عليه.

هذا، على الرغم مما انحدرت إليه الدراسات العربية من الضحالة والسطحية والضعف، ومع كل ما انتهى إليه طلابها من فساد الذوق وعجمة اللسان وفهاهة البيان.

وأشهد لو أن العربية كانت تعيش على ألسنة العرب اليوم أيام شبابها، إذاً لكان للقرآن أثر فريد في حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

ولكن عدواً شرساً لهذه الأمة عرف كيف يسدد الطعنة إليها، وأدرك السبيل إلى تجفيف روافد العز في حياتها، فانحطّ في أسباب الكيد لثقافتها العربية وذاتيتها الإسلامية، عن طريق إبعادها عن سلطان هذا الكتاب وحجبها عن أسباب التأثّر به.

وإن التاريخ ليرصد السعي إلى هذه المكيدة بإحصاء دقيق، وإن ذهل عنه كثير من السادرين والسكارى من أهله، وإنه ليذكر ولا ينسى يوم وقف وزير المستعمرات البريطاني «غلادستون» بين زملائه في مجلس الوزراء يقول، وقد أمسك بيده قرآناً يلوّح إليهم به:

لن تحقّق بريطانيا شيئاً من غاياتها في العرب والمسلمين إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب أولاً. أخرجوا سرَّ هذا الكتاب مما بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود[1]!...

* * *

وبعد، فإن الإحاطة بأسرار هذا الكتاب وجوانب إعجازه، أمر

---

(١) كان هذا التصريح عام ١٨٩٥.

عسير بل مستحيل تقف دونه قدرات البشر جميعاً.

غير أن ما لا يدرك كله لا يترك كله؛ ولقد ساعدني التوفيق الإلهي على توسيع دائرة البحث في إعجاز القرآن من هذا الكتاب، بالقدر الذي سمح به الوقت وامتدّ إليه الجهد.

وكلّ ما زدته أو توسعت فيه من هذا البحث، ليس إلا بمثابة إصبع تشير من على الشاطىء إلى المحيط المتلاطم الذي لا يستبين له حدود.

وإنما المهم من دراسة الإعجاز القرآني أن يصل منها القارىء إلى ما يدرك معه أن صياغة هذا الكتاب ليست مما من شأنه أن يخضع للطاقة الإنسانية، وأن معانيه ليست مما قد يأتي بمثله الفكر الإنساني.

وأحسب أنني قد أتيت من الحديث عن إعجاز القرآن (على إيجازه) بما يعطي القارىء هذا اليقين ويسلّمه إلى هذه الحقيقة.

أما سائر البحوث الأخرى فقد زدت في كثير منها بالقدر الذي أسعفني الوقت، كما غيّرت في بعض منها بالمقدار الذي يقتضيه التنقيح أو الإصلاح.

وإنني إذ أتقدم بهذه الطبعة الجديدة من كتابي هذا إلى طلابي قسم اللغة العربية، وسائر الإخوة القرّاء، آمل أن يجعله الله في أيديهم مفتاح عناية شاملة بالقرآن، وعكوف جادّ على دراسته واتقان تلاوته، وخضوع جديد تحت حكمه وسلطانه.

والله المستعان في كل هداية وتوفيق.

محمد سعيد رمضان البوطي

دمشق في ١٥ شوال سنة ١٣٩٥
٢٠ تشرين أول سنة ١٩٧٥

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله وليّ كل نعمة، يمنّ بالتوفيق ثم يثيب عليه، ويُلهم الحمد ثم يجزي به!.. وأشهد أن لا إله إلاّ الله تفرّد بالربوبية المطلقة فلا ربّ ولا معبود ولا حاكم سواه. ظهر في آثاره وبديع مخلوقاته، فلو رأته العين لم يزدْهُ برؤيتها له ظهوراً، وخفي في كنهه وحقيقته، فمهما تأمله العقل وانسابح وراء تصوره الخيال لم يبلغ العقل ولا الخيال منه شيئاً.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وأسأله سبحانه وتعالى أن يمتّعني بتوفيق من لدنه، وأن يهبني من نعمة الإخلاص لوجهه الكريم ما يقيني من حظوظ نفسي ويعتقني من سلطان كل مادح أو قادح.

وبعد: فقد شاء الله تعالى ـ وهو المتفضّل الكريم ـ أن أُقدّم إلى القرّاء طبعة ثالثة من هذا الكتاب، بعد أن وفّقني سبحانه وتعالى، فأدخلت عليه تهذيباً تناول متفرقات كثيرة من جمله وألفاظه، وألهمني فزدت فيه بحثاً من أهم ما يتعلق بآداب القرآن وعلومه، وهو: الأمثال في القرآن.

ولئن كان في ذلك ما يدلّ على أن الكتاب قد سار خطوة أخرى نحو الكمال، فإنه لدليل في الوقت ذاته على أنه كان ولا يزال يتّسم بالنقصان. وإنه لمن أجلى مظاهر الضعف والقصور في الإنسان أن يشعر

بالنقص في كل شؤونه مع تصوره الكمال المطلق بعقله، فيشتدّ بها نحو غاية الكمال. وكلما ارتقى بها إلى درجة من درجاته اكتشف مزيداً من البُعد بينه وبين غايته، فهو لا يزال يفرّ من النقصان لأن حبّ الكمال مغروس في كيانه، ولا يزال الكمال من فوقه لأنه من خصائص الخالق وهو مخلوق، ولأنه من صفات الربّ جلّ جلاله وهو عبد ضعيف!.

فلئن وجدت أيّها القارىء في الكتاب ـ بعد هذا التهذيب الذي ذكرت ـ بقايا من مظاهر القصور والنقص ـ ولعلّك تجد منها الكثير ـ فذلك لأني لم أستطع أن أتحرر عن سِمة النقص في ذاتي، وما دان لي ذلك، وليس لي من مطمع فيه. ولئن عثرت فيه على مظاهر التقدّم نحو الكمال، فذلك من فضل الله عليّ وتوفيقه. ولقد رأيت أن العبد كلما ازداد بصيرة بضعفه وركوناً إلى عبوديته زاده الله جلّ جلاله قُرباً إليه وتفضلاً وإحساناً، وكلما ازداد نسياناً لضعفه وتعاظماً في نفسه، زاده الله تعالى بُعداً عنه ووكله إلى نفسه وشأنه فلم يأتِ منها بطائل.

وإني إذ أشكر الله تعالى على أن ستر نقصي بتوفيقه، فإني لأشكر سائر الإخوة القرّاء الذين كانوا ولا يزالون يمنون عليّ بملاحظاتهم واستدراكاتهم، ومن لم يشكر الناسَ الذين ألهمهم الله تعالى تذكيره، لم يشكر الله الذي وفّقه للاستفادة من ذلك التذكير!..

وليس العيب أن يعترف العبد بقُصُوره فيتلقّى بيد الشكر نصيحة الناصحين، وإنما العيب كل العيب ما قد يتلبس به أحد رجلين: رجل يستكبر عن قبول الحق فهو يتباهى بين الناس بالباطل الذي ألصقه فيه كبره، وآخر يلتقط مظاهر النقص في الآخرين فيشهرها بين الناس على رماح من ضغينته وحقده. ينبش السيئة من القبر الذي دفنت فيه وإن محاها ألف حسنة وراءها، ويدسّ الحسنات في التراب مهما كان للناس خير في تجليتها وظهورها!..

فأنا أضرع إلى الله عزّ وجلّ أن لا يجعلني واحداً من هـذين الرجلين، وأن يحشرني إليه بقلب سليم قد أخلص لله في دينه، وأخلص مع الناس في أخوّته لهم وصدقه معهم.

وأسأله سبحانه أن يمتّعني برضاته والإخلاص لوجهه، وأن يختم لي بصالح الأعمال إنه أرحم الراحمين وإنه وليُّ كل فضل وتوفيق.

محمد سعيد رمضان البوطي